# منهج ابن تيمية في موقفه من المتصوفة

للأستاذ رابح لطفي جمعه

## ملامح عصره :

عاش ابن تيمية في عصر يعدّ من أخطر العصور التي مرت على دول الإسلام سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية (١).

فمن الناحية السياسية كانت عوامل التحلل والانهيار قد نخرت في جسد الدولة العباسية في بغداد، وكانت السيادة الفعلية للمتغلبين على الخلفاء العباسيين من أمثال بني بويه الديالمة والأتراك السلاجقة حتى انتهى الأمر بسقوط الخلافة العباسية على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ، ومن ناحية أخرى كان الصليبيون قد وطدوا أقدامهم في الشام منذ زمن بعيد واستولوا على معظم حصونه وقلاعه ومدنه وملكوا بيت المقدس إلى أن استنقذه من أيديهم صلاح الدين الأيوبي، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت الحرب بين المسلمين في مصر والشام وبين هؤلاء الصليبيين سجالاً، كما عاد التتار في أيام ابن تيمية يغزون الشام مرة أخرى.

أما من الناحية الاجتماعية فقد كان المجتمع في مصر والشام يموج بكثير من الأجناس المختلفة في الطباع والعادات والتقاليد واللسان والعقيدة، وكثرت الطبقات في هذا المجتمع وتفاوت الأفراد سواء من ناحية السلطان والنفوذ أو المال والثروة، فعم القلق والاضطراب والتناقض حياة الناس مما كان له أثره الخطير في الحياة السياسية والفكرية والقضائية، دع عنك نزعات الانحلال الخلقي والفساد الاجتماعي التي عمت هذا المجتمع، فشاع الفساد فيه، وتفشت المنكرات وانتشرت البدع والضلالات.

أما من الناحية الفكرية؛ العقلية والعلمية، فنستطيع أن نقول إن هذا العصر بالرغم من ذلك كان زاخراً بالعلم والعلماء والإنتاج الضخم في جميع العلوم الإسلامية سواء في التفسير أو الحديث أو الفقه أو اللغة أو التاريخ. إلا أن الطابع الغالب على تلك الناحية الفكرية كان العكوف على ماوصل إليه العرب والمسلمون السابقون في شتى فروع العلم والمعرفة، والانكباب عليه لفهمه والإفادة منه دون الخروج عن الروح التي كانت تسري فيه، وهى التقيد بالأفكار والآراء التي وصلت إلى هذا العصر عن الفقهاء والمتكلمين وغيرهم من رجال الدين، فقد كان باب الاجتهاد مغلقاً منذ القرن الرابع الهجري، فوقف التقليد عند المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة، وجمد الفقهاء على هذه المذاهب يتناولون مؤلفاتها بالشرح حيناً وبالاختصار حيناً آخر، كما جمد علماء الكلام على مذهب الأشاعرة الذي كان وسطاً بين المذهب السلفي ومذهب المعتزلة، خاصة بعد أن انتصر صلاح الدين الأيوبي لهذا المذهب واستمر أولاده من بعده في مصر والشام على الانتصار له حتى قيام دولة المماليك التي عاش ابن تيمية في ظلها(٢).

ومن ناحية أخرى ازدادت في هذا العصر قوة التصوف، واشتد نفوذ رجاله على عامة الناس بل على بعض الفقهاء والسلاطين، وكان لكتابي الغزالي إحياء علوم الدين والمنقذ من الضلال، أبعد الأثر في الإشادة بالتصوف باعتباره الطريق الصحيح الموصل إلى الله سبحانه وتعالى، كما زاد من قوة شأن التصوف ظهور كثير من رجاله المشهورين في هذا العصر من أمثال أحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي، دع عنك أدعياء التصوف من الدجالين والمشعوذين الذين كانوا منتشرين في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

في هذا العصر المائج بالقلاقل والاضطرابات، الزاخر بالتيارات السياسية المختلفة والنزعات الفكرية المتباينة والاتجاهات العقائدية المتضاربة والمذاهب الكلامية المتصارعة والطرق الصوفية المتفرقة، عاش ابن تيمية منفعلاً بكل سمات هذا العصر وملامحه، متفاعلاً معها، فأفاد من كبار الشيوخ الذين عاصروه أو سبقوه بقليل من الزمن وأشاد بالفضلاء منهم، من أمثال الحافظ ابن عساكر وابن الأثير وابن قدامة وابن الصلاح والعز ابن عبد السلام وابن دقيق العيد، بقدر ما كان حرباً على الجامدين والمقلدين بغير علم من فقهاء عصره، كما كان حرباً على الجامدين على مذهب الأشاعرة في علم الكلام وعلى المتصوفة الذي أدخلوا الكثير من مقالات غير المسلمين بغير برهان صحيح أو دليل

سليم(٣).

وفي هذه الصفحات نتكلم عن منهج ابن تيمية في موقفه من المتصوفة والرد عليهم ومناقشة مقالاتهم وتفنيد آرائهم، ويهمنا أن نشير في هذا الصدد إلى أن كل ما أوردناه في هذه الدراسة قد رجعنا فيه إلى مؤلفات ابن تيمية ذاتها وإلى رسائله وفتاويه(٤) وحرصنا على ذلك أشدّ الحرص حتى نضع بين أيدي القراء صورة صادقة وصحيحة لفكر هذا الإمام العظيم ومنهجه الصحيح في البحث والدراسة، ورأيه السديد في مسألة من أهم المسائل التي شغلت ومازال تشغل بال كثير من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وأعني بها مسألة التصوف.

## منهج ابن تيمية في مجادلة المتصوفة والرد عليهم وتفنيد آرائهم:

### (١) التزود بالعلم والمعرفة والإحاطة بمقولات المتصوفة:

إن من يقرأ تاريخ ابن تيمية وما صنفه من كتب ورسائل يستطيع أن يتبين بوضوح أهم ملامح المنهج الذي انتهجه في مجادلة المتصوفة والرد عليهم وتفنيد آرائهم ومقارعتهم الحجة بالحجة وسوق الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

وتدلنا دراسة هذا المنهج على أنه منهج علمي وصل إلى حد كبير من الإحاطة والشمول والإحكام والتدقيق والاستقراء والاستنتاج والاستدلال العقلي والمنطقي، بحيث يمكننا أن نقول إنه يقف جنباً إلى جنب مع أحدث المناهج العلمية في العصر الحديث في البحث والدراسة وتناول القضايا الفكرية ومعالجة المسائل العلمية.

ومما لا شك فيه أن أول ما تعتمد عليه المناهج العلمية الحديثة في البحث والدراسة هو الإحاطة الشاملة والمعرفة الكاملة بموضوع البحث والدراسة والوقوف على جميع زواياه ونواحيه ومختلف وجهات النظر فيه، وبدون ذلك لا يستطيع الباحث أو الدارس أن يسلك منهجاً علمياً سليماً أو ينتهج خطة علمية صحيحة؛ إذ كيف يستطيع الباحث أو الدارس أن يناقش قضية من قضايا العلم أو الفكر وأن يرد عليها ويفندها أو ينحاز إليها ويعتنقها دون أن تكون لديه إحاطة تامة وشاملة بهذه القضية ودون الوقوف على مختلف وجهات النظر فيها؟

ومن هنا فإن أول ما يلاحظ على منهج ابن تيمية في موقفه من المتصوفة، أنه لم يختط

هذا المنهج ولم يتخذ هذا الموقف من فراغ، وإنما تسلح لذلك بعلوم عصره وتزود بجميع أنواع المعرفة وأحاط بمقولات المحدثين والمتأخرين في العقائد والفلسفة وعلم الكلام ومذاهب المتصوفة، فالمعروف أن أباه كان من أعيان الحنابلة وكان إماماً محققاً كثير الفنون والمعارف باشر بدمشق مشيخة دار الحديث السكرية وكان له كرسي بالجامع يتحدث عليه أيام الجمع من حافظته، كما كان جده شيخ الإسلام مجد الدين أبو البركات فقهياً حنبلياً وإماماً مقرئاً ومحدّثاً مفسراً وأصولياً نحوياً وأحد الحفاظ الأعلام(٥)، فنشأ ابن تيمية إذن في هذه البيئة العلمية الطيبة الصالحة الزاخرة بالعلم والكتب وعاش بضع سنين في كنف أبيه يوجهه إلى دراسة المذاهب الفكرية المختلفة ويفتح له خزائن كتبه التي جمعها والتي ورثها عن أبيه مجد الدين(٦)، وكانت بطبيعة الحال تضم العديد من ذخائر الكتب في التفسير والحديث والفقه واللغة وعلومها وآدابها والسير والتصوف والتاريخ والفلسفة وعلم الكلام والعقائد والنحل والفلك والرياضة وسائر ما صنفه السلف ودونوه وترجموه في كل ألوان العلوم والمعرفة، فعكف ابن تيمية على القراءة والدرس ورأى ثاقب فكره أنه مطالب بأن يستزيد من العلم والمعرفة وأن يدرس ويتأمل ويتدبر ويتقن أدوات وأساليب الجدل والمناظرة ويستوعب براهين الفلاسفة وأدلتهم وطرائق أهل الكلام في الفهم والتعبير، وأن يقف على مقولات المتصوفة وإشاراتهم وأذواقهم وشطحاتهم ليجادل عما يعتقد أنه وحده هو الحق والصحيح وأن كل ما عداه من تأويل خطأ وباطل(٧).

**إذن فقد تسلّح ابن تيمية بكل علم تركه السلف وتزوّد بكل لون من ألوان المعرفة التي كانت معروفة في عصره، فقد كان يتوقع في كل لحظة أن يخوض معركة مع خصومه وحاسديه، فأعدّ لها كل أسلحتها من دراسة كاملة بالقرآن وتفسيره والحديث وعلومه والسنة وفقهها وأقوال الصحابة، كما أحاط إحاطة كاملة بأدوات المناطقة والفلاسفة وعلماء الكلام ورجال التصوف في الجدال ودحض مقاطع الحجة منهم.**

**والدليل على ما نقول حاضر بين أيدينا مما تركه ابن تيمية نفسه من مؤلفات ورسائل وفتاوي(٨)؛ ففي كتابه «الحجج النقلية والعقلية فيما ينافي الإسلام من بدع الجهمية والصوفية» يورد لنا شيخ الإسلام بعض مقولات المتصوفة من أمثال نجم الدين بن إسرائيل ومحيي الدين بن عربي وقطب الدين بن سبعين ورابعة العدوية وأبي منصور**

**الحلاج وشهاب الدين السهروردي والشيخ علي الحريري وابن الفارض والتلمساني والفرغاني والششترى وعامر البصري السيواسي وعبدالله البلباني وابن أبي المنصور المتصوف المصري وغيرهم(٩).**

ومما لا شك فيه أن إيراد مقولات هؤلاء المتصوفة توطئة للرد عليها وتفنيدها واحدة واحدة ـ يدلنا على أن ابن تيمية قد اطلع على كتابات هؤلاء المتصوفة ومؤلفاتهم ، وكان على إحاطة تامة بما تنطوي عليه هذه الكتابات والمقولات من آراء تشتمل ـ كما يقول في الرد عليها ـ على أصلين باطلين مخالفين لدين المسلمين واليهود والنصارى مخالفتها للمنقول والمعقول ؛ الأصل الأول القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود وما يقارب ذلك ، والأصل الثاني احتجاج هؤلاء المتصوفة بالقدَر على المعاصي وترك المأمور وفعل المحظور(١٠).

وفي كتابه «حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود وبيان بطلانه بالبراهين النقلية والعقلية» تصل إحاطة ابن تيمية بمقولات المتصوفة في وحدة الوجود إلى الحد الذي يرمي القائلين بها بالجهل والنفاق والتناقض والتخيل والتوهم فيقول «اعلم هداك الله وأرشدك أن تصور مذهب هؤلاء كاف في بيان فساده ولا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر ، وإنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم لما فيه من الألفاظ المجملة والمشتركة ، بل وهم أيضاً لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه ، ولهذا يتناقضون كثيراً في قولهم ، وإنما يتخيلون شيئاً ويقولونه أو يتبعونه ، ولهذا قد افترقوا بينهم على فرق ولا يهتدون إلى التمييز بين فرقهم»(١١).

**ثم يتناول ابن تيمية في المقالة الأولى من هذا الكتاب مقولة ابن عربي ومذهبه في وحدة الوجود ويورد بعض ألفاظه التي تبين مذهبه كما جاءت في كتابيه «نصوص الحكم» و«الفتوحات المكية».**

**ويرجع ابن تيمية مقالة ابن عربي ومن نحا منحاه كابن سبعين والقونوي والتلمساني إلى أصول فلسفية يونانية قديمة منقولة عن أرسطو أو عن مذاهب مسيحية معروفة كالنسطورية واليعقوبية(١٢).**

**وتدلنا مناقشة ابن تيمية لمقولات هؤلاء المتصوفة في وحدة الوجود والرد عليها على سعة اطلاعه وإحاطته الكاملة بهذه المقولات ومصادرها الأجنبية الغريبة عن الفكر الإسلامي ، ويخلص من جولاته مع ابن عربي إلى أن آراءه هدم لأصل الإيمان وفي كلامه**

**من الكفر والتنقيص بالرسل والاستخفاف بهم والغض منهم والكفر بهم وبما جاؤا به مالا يخفى على مؤمن، ويروى عن الشيخ محمد بن عبد السلام أنهم سألوه عن ابن عربي لما دخل مصر فقال «شيخ سوء مقبوح يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجاً»(١٣).**

**هذا بالنسبة إلى الملمح الأول من ملامح منهج ابن تيمية في موقفه من المتصوفة وهو إحاطته الشاملة ومعرفته التامة بمقولاتهم المنطوية على آرائهم ومذهبهم كما وردت في كتاباتهم وإشاراتهم وألفاظهم.**

### (٢) ـ الجرأة في الرأي والحماسة في الدفاع عنه مع عدم التعصب أو الجمود:

أما الملمح الثاني من ملامح هذا المنهج فهو ما لاحظه بعض المعاصرين على ابن تيمية من الشدة والعنف في انتقاد المتصوفة والحملة عليهم والحدة في تفنيد آرائهم وتسفيه مذهبهم والازراء عليهم والتنبيه على أخطائهم والتحذير منهم ومن خطرهم على العقول والقلوب، فقد نسب إليه بعض المعاصرين الحدة في الجدل والجرأة في الرأي والذهاب إلى آراء لم تؤثر عن الفقهاء السابقين وإطلاق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وجسر هو عليها.

يقول ابن رجب في طبقاته «إن الشيخ عماد الدين الواسطي وجماعة من خواص أصحابه ربّما أنكروا على الشيخ ابن تيمية كلامه في بعض الأئمة الأكابر وفي أهل التخلّي والانقطاع ونحو ذلك (أي رجال التصوف)، وكان الشيخ رحمه الله لا يقصد بذلك إلا الخير والانتصار للحق»(١٤).

وقال عنه الذهبي «أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية وهو مع سعة علمه وفرط شجاعته وسلامة ذهنه وتعظيمه لحرمات الله، تعتريه حدة في البحث وغضب وصدمة لخصومه تزرع له عداوة في النفوس، ولولا ذلك كان كلامه إجماعاً، فإن كبارهم خاضعون لعلومه يعترفون بأنه بحر لا ساحل له، وكتز ليس له نظير ولكنهم ينقمون عليه أقوالاً وأفعالاً»(١٥).

والذي نراه في هذه المسألة أن ابن تيمية لم يكن متحاملاً على المتصوفة ولا متعصباً لرأيه ولا مندفعاً في الجدل والمناظرة، وإنما كان رجلاً شجاعاً صريحاً حر الرأي والفكر لا يخاف في الله لومة لائم ولا يعطي الدنية في دينه أو كرامته، ومن هنا اتّسمت آراؤه

وكتاباته وردوده على المتصوفة وآرائهم ومذاهبهم بالجرأة في الرأي والحماس في الدفاع عنه، شأنه في ذلك شأن كل صاحب رسالة يؤمن بها ويدافع عن الحق ولا يقصد بذلك ـ كما يقول ابن رجب ـ إلا الخير والانتصار للحق.

ولنا أن نتساءل متى كان الدفاع عن الحق تعصباً والانتصار له تحاملاً، وتسفيه الباطل حدّة في الجدل، والتحذير من الضلالات عنفاً في الموعظة؟

على أنه مما يؤسف له أن هذا المسلك الذي سلكه ابن تيمية في منهجه في الرد على المتصوفة وتفنيد آرائهم قد جرّ عليه ألواناً من الأذى وجلب عليه صنوفاً من المحن وزرع في القلوب أحقاداً نحوه وأرّث في النفوس عداوات انتهت باعتقاله وحرمانه من القراءة والكتابة إلى أن مات في الحبس(١٦).

ولعل أن يكون من المفيد هنا أن نقرر حقيقة يلمسها كل قارئ لمؤلفات ابن تيمية، تلك هي أنه لم يقف من جميع رجال التصوف موقف الزاري عليهم الناقد لهم المفنِّد لأقوالهم المنكر لأفعالهم، المحذر من خطرهم على العقول والقلوب، وإنما وقف هذا الموقف فقط ممن أسماهم «بصوفية الرسوم» أو صوفية الأرزاق أو «المتسببين إلى التصوف» ويقصد بهم المقتصرين على التشبه بصوفية الحقائق في اللباس والآداب الوضعية، أو الذين يتركون العمل النافع وينقطعون للعبادة وتجري عليهم الأرزاق، فهؤلاء وأولئك كان ابن تيمية حرباً عليهم بل كان يعتبرهم أشدّ خطراً من الغزاة؛ لأنهم ـ كما يقول ـ من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة والعبادات المخالفة للكتاب والسنة وأن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين. ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو وأهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعاً، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء(١٧).

**لقد كان ابن تيمية يعترف بالفضل لبعض شيوخ المتصوفة لا لجميعهم. فالجنيد ـ كما يقول ابن تيمية ـ كان يعلّم مريديه أن المدخل الحق للتصوف هو العلم الكامل بالكتاب والسنة(١٨) والسهروردي كان من المشايخ الذين نقل عنهم ابن تيمية بعض أقوالهم بتقدير واحترام مثل كلامه في العوارف عن الكرامات(١٩)، كذلك اعترف ابن تيمية للشيخ عبد القادر الجيلي بالولاية والكرامات(٢٠)، بل إنه دافع عن بعض الصوفية ونفى**

**عنهم ما نسبه البعض إليهم من أقوال؛ فقد قيل عن رابعة العدوية إنها حجَّت فقالت: هذا الصنم المعبود في الأرض والله ما ولجه الله ولا خلا منه. فينكر ابن تيمية أن تكون رابعة قد قالت هذا الكلام ويقول «وأما ما ذكر عن رابعة العدوية من قولها عن البيت إنه الصنم المعبود في الأرض فهو كذب على رابعة، ولو قال هذا من قاله لكان كافراً يستتاب فإن تاب وإلا قتل. كذلك ما نقل من قولها «والله ما ولجه الله ولا خلا منه» كلام باطل عليها»**(٢١).

لقد أنكر ابن تيمية على المتصوفة جنوحهم إلى لون من الرهبانية التي نهى عنها النبي في قوله «لا رهبانية في الإسلام». أما الزهاد الأوائل فقد كانوا مجاهدين في سبيل الله لا يعتزلون الحياة العامة أو الناس وإنما يعفَون عن الطمع ولا يشغلون القلب بجمع المال، بل يسعون في صلاح الأمة وعمارة الأرض وحماية الثغور ويحقرون من تفتنه زينة الحياة وزخرفها عما ندبه الله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كانوا لا يكتنزون الذهب والفضة، أو يشتغلون بجمع المال بل ينفقونه على ذوي الحاجات وفي سبيل الله ولا يحرمون أنفسهم الطيبات من الرزق، هكذا كان عبدالله بن المبارك والليث بن سعد. أما اعتزال الحياة والناس والاشتغال بأمور أخرى غير تحقيق مصالح الأمة والإقامة في التكايا والخانقاه دون عمل شيء، وإقامة الأذكار البدعية على أنغام خاصة والرقص والتطوح ذات اليمين وذات اليسار والسقوط على الأرض والتمرغ في التراب والاستغاثة بأولياء الله من أصحاب الأضرحة، فكل هذا وأمثاله هو الذي شن عليه ابن تيمية حرباً لا هوادة فيها ولا مهادنة(٢٢).

إذن كان ابن تيمية يعرف أن المتصوفة فيهم البر والفاجر وفيهم التقيّ والمذنب، وأنه لا يحمل بالمسئولين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يسكتوا عن الفجرة منهم والمذنبين أو عن المخالفين للشرع كالذين يزعمون أن لهم وجداً أو مكاشفة أو مخاطبة تخالف القرآن والحديث، أو الذين يزعمون أن القطب الصوفي يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد، أو من يقول منهم إن الولي أفضل من النبي وغير ذلك من مقالات المتفلسفة.

### (٣) الاستقراء والاستدلال العقلي والمنطقي:

إن أهم ما يلجأ إليه الباحثون والدارسون في مناهج البحث والدراسة هو الاستقراء

والاستدلال أو البرهنة القائمة على العقل الصحيح والمنطق السليم، وقد استخدم ابن تيمية في مناقشته آراء المتصوفة والرد عليها هاتين الوسيلتين استخداماً رائعاً يدل على الفطنة والذكاء وحضور البديهة، فاعتمد على العقل والمنطق، وهو ما سماه بالحجج العقلية بقدر ما اعتمد على الاستقراء، وهو ماسماه بالحجج النقلية، فالأدلة عنده إما شرعية أو عقلية، وكثيراً ما يقول عن مسألة ما إنها لم تثبت لا بدليل شرعي ولا دليل عقلي أو إنها مخالفة للعقل والنقل كمسألة «كرية العرش»(٢٣) ومسألة «كلام الله»(٢٤)، أو يقول عن المسألة ـ إنها توافق الأدلة العقلية الصريحة كمسألة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق(٢٥).

**فابن تيمية يجعل كتاب الله وسنة رسوله وآثار الصحابة ومن إليهم سنده الأول في بحوثه وآرائه وردوده على المخالفين للشرع، كما أن القرآن دعا إلى وجوب ملاحظة ما خلق الله من عوالم ومخلوقات في الأرض والسماء، ودعا إلى إعمال العقل فيها والتدبر في خلقها والتفكر في آياته في الآفاق ليصل الإنسان إلى الإيمان بإله واحد لاشريك له.**

على أنه مما يجب التنبيه عليه في هذا الصدد أن اعتماد ابن تيمية في منهجه على الاستدلال العقلي والمنطقي لم يتجاوز قط مجال الكتاب والسنة، وهو بهذا يختلف تماماً عن المفكرين الإسلاميين كالمعتزلة الذين أشادوا بالعقل إلى حد كبير وجعلوا له الأثر البالغ في كل شيء، وجعلوه الفيصل في أمر الإيمان والعقيدة وافتتنوا به ورأوا فيه الفيصل بين الحق والباطل والخير والشر، ومن ثم عمدوا إلى تأويل كثير من نصوص القرآن والحديث الصحيح إذا تعارضت في ظاهرها مع نظر العقل والمنطق، وما يرونه من حقائق يؤدي إليها النظر العقلي الصحيح.

أما ابن تيمية فلم يلجأ في منهجه في البحث إلى تأويل مالا يتفق ونظر العقل من النصوص، وإنما كان يستدل أولاً ثم يعتقد ثانياً ما أداه إليه الدليل النصي، ويفرّق بين التأويل في مفهوم السلف وبينه عند المتصوفة؛ فالتأويل عند السلف هو التفسير وبيان المراد من النص القرآني أو الحديث وهو التأويل المقبول، أما تأويل المتصوفة فهو في اصطلاحهم كما يذكر ابن تيمية «صرف اللفظ عن المعنى المدلول عليه المفهوم منه إلى معنى آخر يخالف ذلك» وبعبارة أخرى صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى آخر خفي.

وعلى ذلك فإن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة عند ابن تيمية موافق لصريح

المعقول، وأن العقل الصريح لايخالف النقل الصحيح، وليس في المعقول ما يخالف المنقول، ويؤكد ابن تيمية في أكثر من موضع من كتبه ورسائله أنه قد تحقق من ذلك بنفسه؛ إذ تبين له بعد استقصاء واستقراء وتفكير طويل اتفاق ماجاء به النقل عن الرسول مع ما وصل إليه العقل بصحيح النظر، ويقول في ذلك «المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط وقد تأملت ذلك في عامة ماتنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة، يُعلم بالعقل بطلانها بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع، وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط بل السمع الذي يقال إنه يخالفه إنما حديث موضوع أو دلالته ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح فكيف إذا خالفه صريح المعقول».

ويؤكد ابن تيمية هذا المعنى في موضع آخر فيقول «إن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول، وإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح ... فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفاً بالأدلة الشرعية وليس في المعقول ما يخالف المنقول، وكذلك العقليات الصريحة إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحاً لم تكن إلا حقاً لا تناقض شيئاً مما قاله الرسول، والقرآن قد دل على الأدلة العقلية التي بها يعرف الصانع وتوحيده وصفاته وصدق رسله، وبها يعرف إمكان المعاد، ففي القرآن من بيان أصول الدين التي تعلم مقدماتها بالعقل الصريح مالا يوجد مثله في كلام أحد من الناس، بل عامة ما يأتي به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتي القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها»(٢٦) .

**وإذن فلم ير ابن تيمية أن يقوم منهجه في الرد على المتصوفة وفي البحث للوصول إلى الحق على التأويل الذي أمعن فيه غيره من هؤلاء المتصوفة، لأنه لاتعارض مطلقاً بين طريق النقل الصحيح وطريق العقل الصريح، والمنقول الذي يخالف العقل لا يكون إلا حديثاً موضوعاً أو نصاً آخر غير قطعي الدلالة على ما يراد الاستدلال به.**

**فالتأويل إذن ليس من عناصر منهج ابن تيمية الذي اتبعه بكل أمانة في كل بحوثه ومناظراته وكتاباته، ولكنه مع ذلك كله لم يهمل العقل والفكر في دراساته ولم يتجاوز به قدره ومجاله ولم يجعله حاكماً على نص قرآني أو حديث صحيح، بل أراد أن يكون**

**العقل دائماً وأبداً في مدار الشريعة ونطاق الكتاب والسنة الصحيحة».**

## الهوامش

(١) دكتور محمد يوسف موسى، ابن تيمية، من سلسلة الإعلام، عدد (٥)، ص ٧ ـ ٦٤.

(٢) الشيخ محمد بهجة البيطار، من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٤.

(٣) الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي، سلسلة مقالات بعنوان «ابن تيمية الفقيه المعذب»، جريدة الأهرام القاهرة، مايو ـ سبتمبر سنة ٨٢.

(٤) نذكر من هذه المؤلفات:
«الحجج النقلية والعقلية فيما ينافي الإسلام من بدع الجهمية والصوفية» و«حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود وبيان بطلانه بالبراهين النقلية والعقلية» و«قاعدة في المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات ومنافعها ومضارها» و«رسالة العبادات الشرعية والفرق بينها وبين البدعية» و«شرح حديث عمران بن حصين المرفوع كان الله ولم يكن شيء قبله»، وجميع هذه المؤلفات طبعت بمطبعة المنار بمصر على نفقة المغفور له الملك الإمام عبد العزيز آل سعود.

(٥) هنري لاوست، حياة ابن تيمية وأفكاره، محاضرة منشورة بمجلة المجمع العلمي العربي «بدمشق، سنة ١٩٤١م.

(٦) الشيخ بهجة البيطار، شيخ الإسلام ابن تيمية، مقال منشور بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٢م.

(٧) عبد الرحمن الشرقاوي، ابن تيمية الفقيه المعذب، المرجع السابق..

(٨) دكتور صلاح الدين المنجد، أسماء مؤلفات ابن تيمية، رسالة منشورة بمعرفة المجمع العلمي العربي.

(٩) ابن تيمية، الحجج النقلية والعقلية فيما ينافي الإسلام من بدع الجهمية والصوفية، ص ١ ـ ٧.

(١٠) ابن تيمية، الحجج النقلية والعقلية، المرجع السابق، ص ٧.

(١١) ابن تيمية، حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود وبيان بطلانه بالبراهين النقلية والعقلية، ص ٥٨.

(١٢) ابن تيمية، حقيقة مذهب الاتحاديين، المرجع السابق، ص ٨٠.

(١٣) ابن تيمية، مذهب الاتحاديين، المرجع السابق، ص ١٢٩، ص ١٣١.

(١٤) ابن رجب، طبقات ابن رجب، الجزء ٢، ص ٣٩٤.

(١٥) عبد الرحمن الشرقاوي، المرجع السابق.

(١٦) ابن كثير، البداية والنهاية، طبع مصر، ج ١٤، ص ١٣٦.

(١٧) ابن تيمية، من فتاوي ابن تيمية، طبع المنار، ص ١١٠.

(١٨)، (١٩)، (٢٠) ابن تيمية، قاعدة في المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات ومنافعها ومضارها، ص ٧.

(٢١) ابن تيمية، الحجج النقلية والعقلية، المرجع السابق، ص ١٩.

(٢٢) عبد الرحمن الشرقاوي، المرجع السابق.

(٢٣)، (٢٤)، (٢٥) ـ ابن تيمية، عرش الرحمن وما ورد فيه من الآيات والأحاديث وكتاب مذهب السلف القويم في تحقيق مسألة كلام الله الكريم.

(٢٦) ابن تيمية، مذهب السلف القويم، ص ٦٤، ٦٥.